دَرْءُ الارْتِيَابِ

عَنْ حَدِيثِ

(مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَالأَصْحَابُ)

فضيلة الشيخ

أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي

كان الله له وعفا عنه بمنه وكرمه

دار التوحيد والسنة

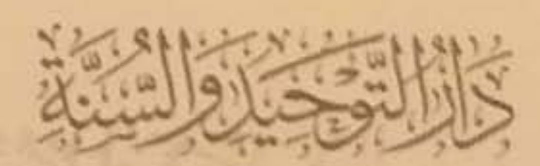
درء الارتياب

عن حديث

(ما أنا عليه اليوم والأصحاب)

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ١٣٥٧٠/٢٠٠٥م



ص.ب: ٩٦٢٥ - قرية الأطفال
www.Dar-TandS.com
E-Mail:info@Dar-TandS.com
جوال: ٠٠٢/٠١٠٥٨٥٠١٤٧ هاتف وفاكس: ٠٠٢٠٢/٤١٠٢٨٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

به ثقتي ، وعليه اعتمادي واستنادي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن الله -تبارك وتعالى- نظر إلى أهل الأرض؛ فمقتهم جميعًا: عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب؛ لأنه لم يجد إلا قلب محمد ﷺ خيرها؛ فاختاره لرسالته، واصطفاه لنفسه، وصنعه على عينه، ثم وجد أصحابه -رضي الله عنهم- أبر قلوبًا، وأعمق علمًا، وأقل تكلفًا، فخصهم بالفهم الثاقب، وحدة القرائح، وحسن التصرف، لما فيهم من الخشية، والزهد، والورع، وحسن القصد.

ولذلك عدَّلهم، واختارهم في نص القرآن، في آيات يكثر إيرادها، ويطول تعدادها.

ووصف الرسول ﷺ أصحابه مثل ذلك، وأطنب في تعظيمهم، وأحسن الثناء عليهم، والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابق لما ورد في نص القرآن.

وجميع ذلك يقتضي طهارتهم، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له، فلا يسأل عنهم، وإنما يسألون عن الناس.

على أنه لو لم يرد من الله -عز وجل- ورسوله ﷺ شيء؛ لأوجبته حالهم التي كانوا عليها من الهجرة، والجهاد والنصرة، وبذل النفس والنفيس، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين القطع على عدالتهم، والاعتقاد بنزاهتهم، وأنهم حجة على من جاء بعدهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فهم أعرف بالتأويل، وأعلم بالتنزيل، وأفقه بمقاصد الشريعة، فالعربية سليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم، وقرائن القضايا رأوها وسمعوها من مشكاة النبوة مشافهة.

ولذلك يغلب على الظن مطابقة أقوالهم وأفعالهم للصواب، بخلاف المتأخرين الذين أضناهم السرى في شعاب الرأي، وترجيح الأقوال بالهوى -إلا من رحم الله وقليل ما هم-.

فارض أخا الإيمان لنفسك بما قاله القوم، وقف حيث انتهوا؛ فإنهم على الحق وقفوا، وبهدى الله كفوا، وهم على كشف المسائل كانوا أقوى، وبالفضل كانوا أحرى.

لئن كان الهدى ما كان الخلف عليه؛ فلقد سبقوهم إليه، ولئن حدث بعدهم فما أحدثه إلا من سلك غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم.

وأيم الله إنهم لهم السابقون الأولون، وهم الفائزون الناجون، فمن تعلق بهم نجى، ومن تخلف كان من المغرقين.

وحسبك أن رسول الله ﷺ علّق النجاة بفهمهم، والحياة باقتفاء أثرهم: الذي هو من فهم رسول الله ﷺ وأثره.

ولما كثر المدعون؛ طولبوا بإقامة البينة على صحة دعواهم؛ فتنوع المدعون بالشهود، فقيل: البينة، ولا تثبت الدعوى، ولا يصح البرهان إلا بشهادة:

«مَا أنا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي».

فلما رأى المفلسون كساد تجارتهم، وتخلف قافلتهم: سعوا في إثارة الشبهات حول هذه الشهادة لعلمهم: أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة.

وزيادة في مكرهم الذي تزول منه الجبال؛ ألبسوا هذه

الشبهات لبوس البحث العلمي، فطعنوا في صحة ثبوتها عن رسول الله، فاستخرت الله في تفنيد دعواهم في ضوء قواعد علم الحديث التي حبرها ورثة الأنبياء تحبيرًا، وكفى بربك بعباده خبيرًا بصيرًا، فكانت هذه الرسالة الموسومة بـ «درء الارتياب عن حديث: ما أنا عليه اليوم والأصحاب».

راجيًا أن تكون منارًا على طريق الحق، وناصحًا في ميدان الدعوة الذي يستلزم الأمانة والصدق.

ورحم الله أخا غيورًا ناصحًا أمينًا وجد وهنًا؛ فنصح لي، ورأى خللاً؛ فأصلحه بالتي هي أحسن للتي هي أقوم، فإن المؤمنين تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وأسال الله -جل جلاله- أن يتقبل جهد المقل بقبول حسن، فينبته نباتًا حسنًا: يثمر الثواب الجزيل، يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ إلا من أتى الله بقلب سليم، إنه سميع عليم.

وعلى الله قصد السبيل

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

نص الحديث

عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ على أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَىَ بَنِي إِسْرَائيل مَثَلاً بمِثْل حَذْوَ النَعْلِ بالنَّعْلْ؛ حتّى لو أنَّ فِيهم مَنْ نَكَحَ أُمَّهُ عَلاَنيةً كاَن في أُمتِي مَنْ يَفْعَلُ مِثْلَهُ.

إنَّ بَنِي إِسْرَائيل افْتَرَقُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ مِلَّة، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلى ثلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّة، كُلُّهَا فيِ النَّار إلاَ وَاحِدَة».

فقيل: يا رسول الله: ما الواحدة؟

قال: «مَا أنَاَ عَلَيْهِ اليَومَ وَأصْحَابي».

توثيق الحديث:

أخرجه بتمامه الترمذي في «سننه» (٥/ ٢٦ - طبعة أحمد شاكر)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٨-١٢٩)، وابن وضاح القرطبي في «البدع والنهي عنها» (ص ٨٥)، والآجري في «الشريعة» (ص ١٥-١٦)، و«الأربعين» (ص٥٣-٥٤)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٦٢)، وابن نصر المروزي في «السنة» (ص ١٨)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ٧)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل

السنة والجماعة» (١٤٧)، وعبدالقاهر البغدادي في «الفرق بين الفرق» (ص ٦) وغيرهم.

كلهم من طريق عبدالرحمن بن زياد، عن عبدالله بن يزيد، عن عبدالله بن عمرو مرفوعًا.

قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ لأن فيه عبدالرحمن بن زياد، هو: الإفريقي: ضعيف من قبل حفظه.

لكن للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن.

١- فقرة اتباع سنن اليهود والنصارى متواترة؛ كما حققتها في بحث حديثي ماتع تجده في «التخريجات الكبرى لأحاديث الوصية الصغرى» (ص٣١-٣٦) منها حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- المطابق للشطر الأول من حديث عبدالله بن عمرو.

قال رسول الله ﷺ: «لَتَركَبُنَّ سَنَنَ مَن كَان قَبْلَكُم شِبْرًا بِشبرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وباعًا بِبَاعٍ، حَتّى لو أَنَّ أَحَدَهُم دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ دَخَلْتُم، وَحَتى لَو أَنَّ أَحَدَهُم ضَاجَعَ أُمَّه بِالطَّرِيقِ لَفَعَلْتُم».

أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٥٥)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ٣٠)، وابن نصر المروزي في «السنة» (ص ١٣)، والبزار (٣٢٨٥ - كشف الأستار).

قلت: وإسناده حسن، رجاله ثقات غير أبي أويس، واسمه: عبدالله بن عبدالله بن أويس بن مالك، وهو من رجال مسلم، لكن فيه ضعف يسير لا يضر؛ فلا ينزل حديثه عن درجة الحسن.

٢- أما فقرة تفرق الأمة الإسلامية؛ كتفرق اليهود والنصارى؛ فغاية في الصحة؛ كما حققتها في بحث حديثي نفيس في كتابي: «نصح الأمة في فهم أحاديث افتراق هذه الأمة» (ص ٩-٢٧)، ومقدمات كتابي: «اللآلئ المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة».

٣- أما الزيادة المفسرة التي جاء بها حديث عبدالله بن عمرو؛ فلها شواهد:

الأول: حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «تَفْتَرِقُ هذه الأُمَّةُ على ثلاثٍ وَسَبْعينَ فِرْقَةً كُلُهَا فِي النَّارِ إلا واحِدةً».

قيل: يا رسول الله: ما هذه الفرقة؟

قال: «مَا كَان عَلى مَا أنا عَلَيهِ اليَومَ وَأَصْحَابي».

أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٢٥٦)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير»(٢/ ٢٦٢)، وبحشل في «تاريخ واسط»(ص ١٩٦).

قلت: إسناده ضعيف؛ فيه عبدالله بن سفيان.

قال العقيلي: «لا يتابع على حديثه»، وأقره الذهبي في «الميزان» (٢/ ٤٣٠).

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٩)، ثم قال: «وذكره ابن حبان في «الثقات»»:

الثاني: حديث عتبة بن غزوان المازني: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِن وَرائِكم أيَّامَ الصَّبْرِ للمُتَمَسِّكِ فِيهنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُم عَلَيه أجْرُ خَمْسِينَ مِنكُم».

قلت: أخرجه ابن نصر في «السنة» (ص ٩) بإسناد رجاله ثقات، لكنه منقطع بين إبراهيم بن أبي عبلة وعتبة بن غزوان.

الثالث: حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال: رسول الله ﷺ:

«أَنْتُمُ اليَوْمَ عَلى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّكُم: تَأْمُرون بالمَعْروف، وَتَنْهَونَ عنِ المُنكَرِ، وَتُجَاهِدُونَ في سبيلِ اللهِ، ثُم تَظْهَرُ فِيكُم السَّكَرتان: سَكْرَةُ الجَهْلِ، وَسَكْرَةُ حُبِّ العَيْشِ، وَستَحَوَّلون عَنْ ذَلِكَ، فَلا تَأْمُرُونَ بِمَعْروفٍ، ولاَ تَنهَونَ عَن مُنكَرٍ، ولا

تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ القَائِمُونَ يَوْمَئِذٍ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ لهَمْ أجْرُ خَمْسِينَ صِدِّيقًا».

قالوا: يا رسول الله منا أو منهم؟

قال: «لاَ بل مِنكم».

أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٤٩).

قلت: إسناده واه.

الرابع: حديث العرباض بن سارية -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «أُوصِيكُم بتقوى اللهِ والسَّمع والطَّاعَةِ، وإنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌ؛ فإنه مَنْ يَعِش منكُم يَرَى اختِلاَفًا كثِيرًا وَإِيَّاكم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ، فَمَن أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنكُم؛ فَعَلَيْكُم بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ».

أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤٠)، والدارمي (١/ ٤٤-٤٥)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٦)، والبيهقي (١٠/ ١١٤)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ١٠٤).

من طريق خالد بن معدان حدثني عبدالرحمن بن عمرو عنه به مرفوعًا.

قلت: وهذا إسناد صحيح.

ووجه الدلالة: أن قوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين»؛ تعني: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، وإليك التفصيل:

اعلم أخا الإيمان أرشدك الله للحق: أن هذا العطف لا يفيد أن للخلفاء الراشدين سنة تتبع دون سنة رسول الله ﷺ بل أنهم اتبعوا سنته ﷺ حذو القذة بالقذة، لذلك وصفوا بالهداية والرشد، فأضافها لهم ﷺ؛ لأنهم أحق بها وأهلها، وأولى الناس بفهمها.

وهذا الفهم تواتر عن ربانيي هذه الأمة المرحومة منهم:

١- ابن حزم الأندلسي -رحمه الله- حيث صرح في كتابه المستطاب: «الإحكام في أصول الأحكام» (٦/ ٧٦-٧٨): «وأما قوله -عليه السلام-: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين»؛ فقد علمنا أنه -عليه السلام- لا يأمر بما لا يقدر عليه، ووجدنا الخلفاء الراشدين بعده -عليه السلام- قد اختلفوا اختلافًا شديدًا، فلا بد من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها:

إما أن نأخذ بكل ما اختلفوا فيه، وهذا ما لا سبيل إليه، ولا يقدر أحد عليه، إذ فيه الشيء وضده، ولا سبيل إلى أن يورث أحد الجد دون الأخوة بقول أبي بكر وعائشة،

ويورثه الثلث فقط، وباقي ذلك للأخوة على قول عمر، ويورثه السدس، وباقيه للأخوة على مذهب علي.

وهكذا في كل ما اختلفوا فيه، فبطل هذا الوجه؛ لأنه ليس في استطاعة الناس أن يفعلوه، فهذا وجه.

أو أن يكون مباحًا لنا أن نأخذ بأي شئنا، وهذا خروج عن الإسلام؛ لأنه يوجب أن يكون دين الله -تعالى- موكولاً إلى اختيارنا، فيحرم كل واحد منا ما يشاء، ويحل ما يشاء، ويحرم أحدنا ما يحلله الآخر.

وقوله -تعالى-: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله -تعالى-: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، يبطل هذا الوجه الفاسد،ويوجب أن ما كان حرامًا حينئذ؛ فهو حرام إلى يوم القيامة، وما كان واجبًا يومئذ فهو واجب إلى يوم القيامة، وما كان حلالاً يومئذ؛ فهو حلال إلى يوم القيامة.

وأيضًا؛ فلو كان هذا لكنا إذا أخذنا بقول الواحد منهم، فقد تركنا قول الآخر منهم، ولا بد من ذلك؛ فلسنا حينئذ متبعين لسنتهم، فقد حصلنا في خلاف الحديث

المذكور، وحصلوا فيه شاؤوا أو أبوا.

ولقد أذكرنا هذا مفتيًا كان عندنا بالأندلس -وكان جاهلاً- فكانت عادته أن يتقدمه رجلان: كان مدار الفتيا عليهما في ذلك الوقت، يكتب تحت فتياهما:

أقول بما قاله الشيخان. فقضي أن ذينك الشيخين اختلفا، فلما كتب تحت فتياهما ما ذكرنا.

قال له بعض من حضر: إن الشيخين اختلفا؟!

فقال: وأنا أختلف باختلافهما[١]!!

قال أبو محمد:

فإذا بطل هذان الوجهان، فلم يبق إلا الوجه الثالث، وهو:

أخذنا ما أجمعوا عليه، وليس ذلك إلا فيما أجمع عليه سائر الصحابة -رضوان الله عليهم-، وفي تتبعهم سنن النبي

---

(١) هذا مثال للمتعالم الذي زبب قبل أن يتحصرم، وراش قبل أن يبرى، وطيَّر قبل أن يريش، فصنع حلائب النزال ظانًا أنه من العمالقة، حيث صرع نفسه والعامة؛ لأنه يحسن فن العرض والتمثيل، وعرض العضلات، ولكنه إذا وضع تحت المحك والتوثيق كشفته شواهد الامتحان، فخر صريعًا؛ لأنه لا يقوى على التحليق في سماوات الإجادة بأجنحة من علم غزير، وإدراك بصير.

ﷺ، والقول بها.

وأيضًا، فإن رسول الله ﷺ إذا أمر باتباع الخلفاء الراشدين لا يخلو ضرورة من أحد وجهين:

إما أن يكون -عليه السلام- أباح أن يسنوا سننا غير سننه، فهذا ما لا يقوله مسلم، ومن أجاز هذا؛ فقد كفر، وارتد، وحل دمه وماله؛ لأن الدين كله إما واجب أو غير واجب، وإما حرام، وإما حلال؛ لا قسم في الديانة غير هذه الأقسام أصلاً، فمن أباح أن يكون للخلفاء الراشدين سنة لم يسنها رسول الله ﷺ، فقد أباح أن يحرموا شيئًا كان حلالاً على عهده -عليه السلام- إلى أن مات، أو أن يحلوا شيئًا حرمه رسول الله ﷺ، أو أن يوجبوا فريضة لم يوجبها رسول الله ﷺ.

هذه الوجوه من جوّز منها شيئًا؛ فهو كافر مشرك بإجماع الأمة كلها بلا خلاف، وبالله -تعالى- التوفيق، فهذا وجه قد بطل ولله الحمد.

وإما أن يكون باتباعهم في اقتدائهم بسنته -عليه السلام-، فكذا نقول ليس يحتمل هذا الحديث وجهًا غير هذا أصلاً»ا.هـ بحروفه.

٢- شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني -رحمه الله- حيث

قال في «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨٢).

«وأما سنة الخلفاء الراشدين فإنما سنوه بأمره، فهو في سنته، ولا يكون في الدين واجبًا إلا ما أوجبه، ولا حرامًا إلا ما حرمه، ولا مستحباً إلا ما استحبه، ولا مكروهًا إلا ما كرهه، ولا مباحًا إلا ما أباحه» ا.هـ بحروفه.

٣- الفلاني -رحمه الله- حيث صرح في «إيقاظ همم أولي الأبصار» (ص ٢٣):

«وإنما يقال: سنة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما-؛ ليعلم أن النبي ﷺ مات وهو عليها.

أقول: وعلى هذا ينبغي الآن أن يحمل حديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي» فلا يبقى فيه إشكال في العطف، فليس للخلفاء سنة تتبع إلا ما كان عليه الرسول ﷺ» ا.هـ بحروفه.

٤- القاري -رحمه الله- حيث صرح في «مرقاة المفاتيح» (١/ ١٩٩):

«فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي، فالإضافة إليهم إما لعلمهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إياها».

٥- ووافقه العلامة المباركفوري -رحمه الله- في «تحفة

الأحوذي» (٣/ ٥٠ و٧/ ٤٢٠)؛ حيث قال:

«ليس المراد بسنة الخلفاء الراشدين إلا طريقتهم الموافقة لطريقته ﷺ».

قال القاري في «المرقاة»:

«فعليكم بسنتي؛ أي: بطريقتي الثابتة عني واجبًا ومندوبًا، وسنة الخلفاء الراشدين؛ فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي، فالإضافة إليهم إما لعلمهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إياها» ا.هـ. بحروفه.

وقال -أيضًا- (٣/ ٥١):

«فإذا عرفت أنه ليس المراد بسنة الخلفاء الراشدين إلا طريقتهم الموافقة لطريقه ﷺ» ا.هـ بحروفه.

ونقل (٧/ ٤٤٠-٤٤١) كلامًا نفيسًا عن العلامة الشوكاني، فقال:

«إن أهل العلم قد أطالوا الكلام في هذا،وأخذوا في تأويله بوجوه أكثرها متعسفة، والذي ينبغي التأويل عليه، والمصير إليه، هو: العمل بما يدل عليه هذا التركيب بحسب ما تقتضيه لغة العرب، فالسنة هي: الطريقة، فكأنه قال: الزموا طريقتي وطريقة الخلفاء الراشدين، وقد كانت طريقتهم هي

نفس طريقته، فإنهم أشد الناس حرصًا عليها، وعملاً بها في كل شيء، وعلى كل حال كانوا يتوقون مخالفته في أصغر الأمور فضلاً عن أكبرها، وكانوا إذا أعوزهم الدليل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عملوا بما يظهر لهم من الرأي بعد الفحص، والبحث والتشاور والتدبير.

وهذا الرأي عند عدم الدليل، وهو -أيضًا- من سنته؛ لما دل عليه حديث معاذ لما قال له رسول الله ﷺ: «بم تَقْضِي؟». قال: بكتاب الله. قال: «فَإن لَم تَجِدْ؟». قال: فبسنة رسول الله. قال: «فَإنِ لَم تَجِد؟». قال: اجتهد برأيي. قال: «الحَمْدُ لِلهِ الَّذي وَفَّقَ رَسُولَ رَسِولِ اللهِ»، أو كما قال.

وهذا الحديث وإن تكلم فيه بعض أهل العلم بما هو معروف؛ فالحق أنه من قسم الحسن لغيره[1]، وهو معمول به، وقد وضحت هذا في بحث مستقل.

فإن قلت: إذا كانوا ما عملوا فيه بالرأي هو من سنته لقوله: «وسنة الخلفاء الراشدين» ثمرة؟

قلت: ثمرته أن من الناس من لم يدرك زمنه ﷺ،

---

(١) بل هو ضعيف منكر؛ كما بينه شيخنا الألباني -رحمه الله- في بحث ماتع نفيس تجده في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٨٨١).

وأدرك زمن الخلفاء الراشدين، أو أدرك زمنه وزمن الخلفاء، ولكنه حدث أمر لم يحدث في زمنه، ففعله الخلفاء، فأثار بهذا الإرشاد إلى سنة الخلفاء إلى دفع ما عساه يتردد في بعض النفوس من الشك، ويختلج فيها من الظنون.

فأقل فوائد الحديث: أن ما يصدر عنهم من الرأي وإن كان من سنته -كما تقدم-، ولكنه أولى من رأي غيرهم عند عدم الدليل.

وبالجملة؛ فكثيرًا ما كان ﷺ ينسب الفعل أو الترك إليه، أو إلى أصحابه في حياته مع أنه لا فائدة لنسبته إلى غيره مع نسبته إليه؛ لأنه محل القدوة، ومكان الأسوة؛ فهذا ما ظهر لي في تفسير هذا الحديث، ولم أقف عند تمريره على ما يوافقه من كلام أهل العلم[1]، فإن كان صوابًا؛ فمن الله، وإن كان خطأً؛ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله العظيم» ا.هـ بحروفه.

ونقل المباركفوري -رحمه الله- في «تحفته» (٣/ ٥٠-٥١) كلامًا مستطابًا للعلامة الصنعاني:

أما حديث: «وَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ».

---

(١) تقدم -آنفًا- الكثير من ذلك، فتنبه.

أخرجه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والترمذي، وصححه الحاكم، وقال: على شرط الشيخين.

ومثله حديث: «اقْتَدُوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أبي بَكْرٍ وَعُمَر».

أخرجه الترمذي، وقال: حسن، وأخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان، وله طريق فيها مقال إلا أنه يقوي بعضها بعضًا.

فإنه ليس المراد بسنة الخلفاء الراشدين إلا طريقتهم الموافقة لطريقته ﷺ: من جهاد الأعداء، وتقوية شعائر الدين، ونحوها.

فإن الحديث عام لكل خليفة راشد لا يخص الشيخين، ومعلوم من قواعد الشريعة أنه ليس لخليفة راشد أن يشرع طريقة غير ما كان عليها النبي ﷺ.

ثم هذا عمر -رضي الله عنه- نفسه الخليفة الراشد سمى ما رآه من تجميع صلاته ليالي رمضان بدعة، ولم يقل: أنها سنة فتأمل»[١] ا.هـ. بحروفه.

من هذه النقول عن هؤلاء الأئمة الفحول يتمخض الحديث عن قول صريح، ومعنى صحيح، وهو:

---

(١) على الاصطلاح اللغوي لا الشرعي؛ كما وضحته في رسالتي: «البدعة وأثرها السيئ في الأمة» (ص ٢٢-٢٤).

إن المخرج من مضلات الهوى، وسبيل النجاة من معضلات الشبهات ومضلات الشهوات -التي تحيل من اتبعها عن المحجة البيضاء- ما كان عليه الصحابة -رضي الله عنهم- من فهم لسنة رسول الله ﷺ؛ فإنهم أخذوا منها بحظ وافر، وحازوا قصبات السباق، واستولوا على الأمد، فلا مطمع لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق بهم، فإنهم على هدى وقفوا، وبعلم قد كفوا، وببصر ثاقب نظروا، والسعيد من اتبع صراطهم السوي، والشقي من زاغ ذات اليمين وذات الشمال، وسلك سبل الغي، فالتائه الحائر في ميدان المهالك والضلال يظن سراب الأهواء ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الشيطان عنده، فاستحوذ عليه، نعوذ بالله من الخذلان.

فقل لي بربك: أي خصلة خير لم يسبقوا إليها؟ وأي خطة رشد لم يستولوا عليها، والذي نفسي بيده لقد نهلوا الحق من معينه عذبًا زلالاً، فأيدوا قواعد الإسلام فلم يتركوا لأحد مقالاً، وألقوا إلى التابعين بإحسان ما ورثوه من مشكاة النبوة خالصًا صافيًا، وكان سندهم فيه نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العزة سندًا عاليًا.

لقد كانت سنة رسول الله ﷺ أجل في صدورهم، وأعظم في نفوسهم أن يقدموا عليه هوى، أو أن يخلطوها

برأي مشوب، كيف وقد عادوا ووالوا عليها؟

فإذا دعاهم رسول الله ﷺ إلى أمر طاروا إليه زرافات ووحدانًا، وحملوا أنفسهم عليها؛ فلا يسألوه عما قال برهانًا.

لذلك فهم أولى الناس بسنة رسول الله ﷺ فهمًا، وها نحن نرشف شك المتريب بأحد عشر سهمًا، لتنداح شجرة اليقين فنجني من أعلاها المغدق حلاوة الإيمان، ونتقلب تحت أسفلها المورق في أفواف روح وريحان.

١- قال الله -تعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وجه الدلالة: أن رب البرية أثنى على من اتبع خير البرية، فعلم: أنهم إذا قالوا: فاتبعهم متبع، فيجب أن يكون محمودًا، وأن، يستحق الرضوان، ولو كان أتباعهم لا يتميزون عن غيرهم، لم يستحقوا الثناء والرضوان.

٢- قال الله -جل ثناؤه-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ

وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠].

وجه الدلالة: لقد أثبت الله لهم الأفضلية على سائر الأمم، وذلك يقتضي استقامتهم على كل حال؛ لأنهم لن يزيغوا عن البيضاء، فقد شهد الله لهم أنهم يأمرون بكل معروف، وينهون عن كل منكر، وذلك يستلزم: أن فهمهم حجة على من بعدهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فإن قيل: هذا عام في الأمة لا يختص بجيل الصحابة - رضي الله عنهم- دون من بعدهم.

قلت: هم المخاطبون ابتداءًا، ولا يدخل من تبعهم بإحسان إلا بقياس، أو بدليل آخر؛ كما هو في الدليل الأول.

وعلى تسليم التعميم -وهو الصواب- فإن الصحابة- رضي الله عنهم-أول داخل في شمول الخطاب، فإنهم أول من تلقى عن رسول الله ﷺ بدون واسطة، وهم المباشرون للوحي.

وهم أولىبالدخول من غيرهم إذ الأوصاف التي وصفهم الله بها لم يتصف بها على وجه الكمال إلا هم؛ فمطابقة الوصف للاتصاف شاهد على أنهم أحق من غيرهم بالمدح، ولذلك:

٣- قال رسول الله ﷺ:

«خَيْرُ النَّاسِ[١] قرني، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِم يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَه»[٢].

وجه الدلالة: هل الخيرية المثبتة لجيل الصحابة -رضي الله عنهم- في ألوانهم، أو أجسامهم، أو أموالهم، أو ...؟

لا يشك عاقل عقل الكتاب والسنة أن شيئًا من ذلك غير مقصود؛ لأن الخيرية في الإسلام مقياسها تقوى القلوب والعمل الصالح.

قال -تعالى-: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم وَأَمْوَالِكُم، ولكن يَنظُرُ إلى قُلُوبِكم وَأَعْمَالِكُم»[٣].

---

(١) شاع في كثير من الكتب. هذا الحديث بلفظ: «خير القرون».

قلت: هذا اللفظ غير محفوظ، والصواب ما أثبته.

(٢) حديث متواتر، نص على ذلك الحافظ في «الإصابة» (١/ ١٢)، والسيوطي وأقره المناوي في (فيض القدير» (٣/ ٤٧٨)، وأقرهم الكتاني في «نظم المتناثر» (ص ١٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (٦/ ١٢١ - نووي).

ولقد نظر الله إلى قلوب صحابة رسول الله ﷺ، فوجدها خير قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ؛ فآتاهم فهمًا لا يدركه اللاحقون، ولذلك فما رآه الصحابة حسنًا؛ فهو عند الله حسن، وما رآه الصحابة سيئًا؛ فهو عند الله سيئ.

قال عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه-:

«إن الله نظر إلى قلوب العباد؛ فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد؛ فاصطفاه لنفسه؛ فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا؛ فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئًا؛ فهو عند الله سيئ»[١].

عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: «لا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩)، والطيالسي في «مسنده» (ص ٢٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٦٦). وقد اشتهرت الجملة الأخيرة منه بأنها مرفوعة، ولا يصح ذلك؛ كما نص على ذلك أئمة الصنعة، وإنما هي من قول ابن مسعود؛ كما بينته، وكذلك استدل بها محسنو البدع على تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، وقد فندت ذلك كله في رسالتي: «البدعة وأثرها السيئ على الأمة» (ص ٢١-٢٢)؛ فلتنظر.

هذه الصحيفة»[١].

قلت: فما في هذه الصحيفة؟

قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر[٢].

وبذلك يكون فهم الصحابة -رضي الله عنهم- للكتاب والسنة حجة على من بعدهم إلى آخر هذه الأمة، ولذلك؛ فهم شهداء الله في الأرض.

٤- قال الله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

وجه الدلالة: لقد جعل المولى -عز وجل- الصحابة -رضي الله عنهم- خيارًا عدولاً؛ فهم أفضل الأمم، وأعدلها في

---

(١) هذا النص الصريح من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- يدمغ باطل الشيعة الذين انتسبوا إلى آل البيت النبوي ظلمًا وتدليسًا، حيث زعموا: أن لدى العترة كتابًا يعادل القرآن الذي بين أيدينا ثلاث مرات، وسموه: «مصحف فاطمة».

وانظر: «بغية المرتاد» لشيخ الإسلام (ص ٣٢١-٣٢٢)؛ ففيه كلام نفيس.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢٠٤ - الفتح)، وفي مواطن أخرى في «صحيحه»، وبألفاظ مقاربة.

أقوالهم، وأفعالهم وإرادتهم، ولذلك استحقوا أن يكونوا شهداء الله على الناس؛ فلهذا نوه بهم، ورفع ذكرهم، وأثنى عليهم، وتقبلهم بقبول حسن.

والشاهد المقبول عند الله هو: الذي يشهد بعلم وصدق؛ فيخبر بالحق مستندًا إلى علمه.

قال -تعالى-: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦].

فإذا كانت شهادتهم مقبولة عند الله؛ فلا ريب أن فهمهم للدين حجة على من بعدهم؛ لأن هذه الآية أثبت الدلالة مطلقًا.

والأمة لم تعدل جيلاً مطلقاً إلا جيل الصحابة -رضي الله عنهم-، فإن أهل السنة والجماعة عدولهم على الاطلاق والعموم، فأخذوا عنهم رواية ودراية ورعاية من غير استثناء، ولا محاباة، بخلاف غيرهم؛ فلم يعدلوا إلا من صحت إمامته، وثبتت عدالته، وهما لا يمنحان لإنسان إلا إذا سار على قدم الصحابة -رضي الله عنهم-.

فثبت بهذا أن فهم الصحابة -رضي الله عنهم- حجة على غيرهم في توجيه نصوص الكتاب والسنة، ولذلك أمر

باتباع سبيلهم.

٥- قال -تعالى-: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥].

وجه الدلالة: وكل من الصحابة -رضي الله عنهم- منيب إلى الله، فهداهم إلى الطيب من القول، والصالح من العمل بدليل قوله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝﴾ [الزمر:١٧و١٨].

فوجب اتباع سبيلهم في الفهم لدين الله كتابًا وسنة، ولذلك هدد الله من اتبع غير سبيلهم بجهنم وبئس المصير.

٦- قال الله -تعالى-: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝﴾ [النساء:١١٥].

وجه الدلالة: أن الله توعد اتباع غير سبيل المؤمنين، فدل على أن اتباع سبيلهم في فهم شرع الله واجب وهدى، ومخالفته ضلال.

فإن قيل: هذا استدلال بدليل الخطاب، وليس بحجة.

قلت: هو دليل، ودونك الدليل:

أ- عن يعلى بن أمية -رضي الله عنه-، قال:

قلت لعمر بن الخطاب: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ [النساء: ١٠١]. فقد أمن الناس؟ قال عمر: عجبت مما عجبت، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال:

«صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهَ بِهَا عَلَيْكُم؛ فاقْبَلوا صَدَقَتَه»[١].

لقد فهم هذان الصحابيان: يعلى بن أمية[٢]، وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- من هذه الآية: أن قصر الصلاة مقيد بشرط الخوف، فإذا أمن الناس؛ فلا بد من الإتمام، وهذا هو دليل الخطاب المسمى-: «مفهوم المخالفة».

وسأل عمر -رضي الله عنه- رسول الله ﷺ؛ فأقره على فهمه، ولكنه بين له أن ذلك غير معتبر هنا؛ لأن الله تصدق عليكم؛ فاقبلوا صدقته.

---

(١) أخرجه مسلم (٥/ ١٩٦ - نووي).

(٢) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٣/ ٦٦٨).

ولو كان فهم عمر -رضي الله عنه- لا يصح لما أقره الرسول ابتداءًا، ثم وجهه هذا التوجيه، ولقد قيل: التوجيه فرع القبول.

ب- عن جابر عن أم مبشر -رضي الله عنهما- أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة:

«إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لاَ يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ -إن شاء الله- من أصحابِ الشَّجَرَةِ الذين بايَعُوا تَحْتَها». فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]. فقال النبي ﷺ: قد قال الله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝﴾ [مريم:٧٢][1].

لقد فهمت أم المؤمنين حفصة -رضي الله عنها-: أن الورود لجميع الناس، وأنه بمعنى: الدخول، فأزال رسول الله ﷺ إشكالها بتمام الآية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم:٧٢].

فرسول الله ﷺ أقرها على فهمها ابتداءًا، ثم وضح لها: أن الدخول المنفي غير الورود المثبت، وأن الأول خاص بالصالحين المتقين، والمراد به: نفي العذاب؛ فهم يمرون منها إلى الجنة دون أن يمسهم سوء عذاب، وباقي الناس على خلاف ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥٥٢).

فثبت ولله الحمد والمنة: أن دليل الخطاب حجة يعتمد عليه، ويعول في الفهم إليه.

ناهيك أن قوله -تعالى-: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ليس دليل خطاب، وإنما هو احتجاج بتقسيم عقلي؛ لأنه ليس بين اتباع سبيل المؤمنين واتباع غير سبيلهم قسم ثالث، فإذا حرم الله -جل جلاله- اتباع غير سبيلهم، وجب اتباع سبيلهم، وهذا واضح لا يشتبه.

فإن قيل: فإن بين القسمين ثالثًا، وهو: عدم الاتباع أصلاً.

قلت: هذا من أوهن ما نطقت به العقول؛ لأن عدم الاتباع أصلاً هو اتباع لسبيل غيرهم قولاً واحدًا، لقوله -تعالى-: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس:٣٢].

فثبت أنهما قسمان لا ثالث لهما.

فإن قيل: لا نسلم أن اتباع غير سبيل المؤمنين موجب لهذا الوعيد بل هو مشاقة الرسول ﷺ؛ فلا يلزم حرمة اتباع غير سبيل المؤمنين مطلقًا بل إذا كانت مع المشاقة.

قلت: معلوم أن المشاقة محرمة بأفرادها، مستقلة بنفسها؛

لإيجاب الوعيد عليها.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:١٣].

فدل أن الوعيد على كل منهما بانفراده، وأن هذا الوصف يوجب الوعيد بمفرده،ويدل على ذلك أمور، منها:

أ- أن اتباع غير سبيل المؤمنين لو لم يكن محرمًا بانفراده لم يحرم مع المشاقة كسائر المناجاة.

ب- أن اتباع غير سبيل المؤمنين لو لم يكن يدخل بانفراده في الوعيد؛ لكان لغوًا لا فائدة من ذكره؛ فثبت أن عطفه علة مستقلة كالأول.

فإن قيل: لا نسلم أن الوعيد لمن اتبع غير سبيل المؤمنين مطلقًا بل بعد ما تبين له الهدى؛ ولأنه ذكر مشاقة الرسول ﷺ وشرط فيها تبيين الهدى، ثم عطف عليها اتباع غير سبيل المؤمنين، فيجب أن يكون تبين الهدى شرطًا في الوعيد على اتباع غير سبيل المؤمنين.

قلت: قوله -تعالى-: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾؛ فلا يكون قيد الأول شرطاً للثاني، وإنما العطف

لمطلق الجمع والمشاركة في الحكم، وهو قوله -تعالى-: ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾؛ فدل على أن كلا الوصفين يوجب الوعيد بانفراده.

ويدل عليه ما يأتي:

أ- أن تبين الهدى شرط في مشاقة الرسول ﷺ؛ لأنه من جهل هدى رسول الله ﷺ لا يوصف بالمشاقة، أما اتباع سبيل المؤمنين؛ فهو هدى في نفسه.

ب- أن الآية خرجت مخرج التعظيم والتبجيل للمؤمنين، فلو كان اتباع سبيلهم مشروطًا بتبين الهدى لم يكن اتباع سبيلهم لأجل أنه سبيلهم بل لتبين الهدى، وعندئذ؛ فإن اتباع سبيلهم لا فائدة منه.

وبهذا تبين: أن اتباع سبيل المؤمنين منجاة، فثبت: أن فهم الصحابة -رضي الله عنهم- للدين حجة على غيرهم، فمن حاد عنه لجلجاً؛ فقد ابتغى عوجًا وسلك مكانًا فحسبه جهنم وساءت مستقرًا، ومقامًا، ومصيرًا، هذا هو الحق؛ فاعتصم به، ولا تكن من الغافلين.

٧- قال الله -تعالى-: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وجه الدلالة: الصحابة -رضي الله عنهم- معتصمون بالله، لأن الله ولي من اعتصم به لقوله -تعالى-:﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج:٧٨]، ومعلوم كمال تولي الله لهم، ونصره إياهم أتم نصرة وأعظمها، مما يدل أنهم معتصمون بالله فهم مهديون بشهادة الله، واتباع المهدي واجب شرعًا وعقلاً وفطرة، ولذلك جعلهم الله أئمة متقين: يهدون بأمر الله، بما صبروا، وكانوا موقنين.

٨- قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤].

وجه الدلالة: فكل تقي يأتم بهم، والتقوى واجبة صرح الله بذلك في آيات كثيرة يصعب حصرها في هذا المقام؛ فعلم: أن الإئتمام بهم واجب، والعنود عن سبيلهم مظنة الفتنة والمحنة.

٩- قال الله -تعالى-: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

وجه الدلالة: هذا الوصف ورد في أصحاب موسى -عليه الصلاة والسلام-؛ فأخبر المولى الحق -جل جلاله-: أنه جعلهم أئمة يأتم بهم من بعدهم؛ لصبرهم ويقينهم، إذ

بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

ومعلوم أن أصحاب محمد ﷺ أحق وأولى بهذا الوصف من أصحاب موسى -عليه الصلاة والسلام-، فهم أكمل يقيناً، وأعظم صبرًا من جميع الأمم، فهم أولى بمنصب الإمامة، وهذا ثابت بشهادة الله لهم وثناء رسول الله ﷺ، فلذلك فهم أعلم هذه الأمة فوجب الرجوع إلى فتاويهم وأقوالهم، والتقيد بفهمهم للكتاب والسنة، حسًا، وعقلاً، وشرعًا، وبالله التوفيق.

١٠- عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، فجلسنا، فخرج علينا، فقال: «ما زِلْتُم هُنَا؟».

قلنا: يا رسول الله صلينا معك، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء.

قال: «أَحْسَنْتُم أو أَصَبْتُم».

قال: ثم رفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء[1].

---

(١) انظر مثاله في «الوصية الصغرى» لشيخ الإسلام (ص٦٢-٦٥ -بتحقيقي).

فقال: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ للسَّمَاء؛ فَإذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ أَمْرُهَا، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي؛ فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُون، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي؛ فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»[1].

وجه الدلالة: لقد جعل رسول الله ﷺ نسبة أصحابه -رضي الله عنهم- إلى من بعدهم في الأمة الإسلامية؛ كنسبته لأصحابه، وكنسبة النجوم إلى السماء.

ومن المعلوم: أن هذا التشبيه النبوي يعطي في وجوب اتباع فهم الصحابة -رضي الله عنهم- للدين نظير رجوع الأمة إلى نبيها ﷺ؛ فإنه ﷺ المبين للقرآن، وأصحابه -رضوان الله عليهم- ناقلو بيانه للأمة.

وكذلك رسول الله ﷺ معصوم لا ينطق عن الهوى، وإنما يصدر عنه الرشاد والهدى، وأصحابه عدول لا ينطقون إلا صدقًا، ولا يعملون إلا حقًا.

وكذلك النجوم جعلها الله رجومًا للشياطين في استراق السمع، فقال -تعالى-: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا

(١) أخرجه مسلم (١٦/ ٨٢ - نووي).

وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝ ﴾ [الصافات:٦-١٠]. وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك:٥].

وكذلك الصحابة -رضي الله عنهم- زينة هذه الأمة كانوا رصدًا لتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين: الذين جعلوا القرآن عضين، واتبعوا أهواءهم، فتفرقوا ذات اليمين وذات الشمال؛ فكانوا عزين.

ولذلك؛ فإن النجوم منار لأهل الأرض؛ ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قال المولى -تعالى-: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل:١٦].

وقال ربنا -جل شأنه-: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام:٩٧].

وكذلك الصحابة -رضوان الله عليهم -نجوم الهدى، ورجوم العدى يقتدى بهم للنجاة من ظلمات الشهوات والشبهات، ومن أعرض عن فهمهم؛ فهو في غيه يتردى في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها.

وبفهم الصحابة -رضي الله عنهم- نحصن الكتاب

والسنة من بدع شياطين الإنس والجن: الذين يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله؛ ليفسدوا مراد الله ورسوله ﷺ، فكان فهم الصحابة -رضي الله عنهم- حرزًا من الشر وأسبابه، ولو كان فهمهم لا يحتج به؛ لكان فهم من بعدهم أمنة للصحابة -رضي الله عنهم- وحرزًا لهم، وهذا محال.

١١- وقد استفاضت الأحاديث في إيجاب محبتهم وذم من أبغضهم، وكمال محبتهم في اقتفاء أثرهم، والسير على هداهم في فهم كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَلَو أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم ولاَ نَصِيفَه»[١].

وجه الدلالة: وما ذاك من جهة كونهم رأوه أو جاوروه أو حاوروه فقط، فإن ذلك لا مرية فيه، وإنما هو لشدة

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٢١- الفتح)، ومسلم (١٦/ ٩٢- ٩٣ - نووي) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-.

وقد وقع عند مسلم (١٦/ ٩٢ - نووي) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وهو وهم؛ كما بينه الحافظ البيهقي في «المدخل إلى السنن» (ص ١١٣)، وابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٥).

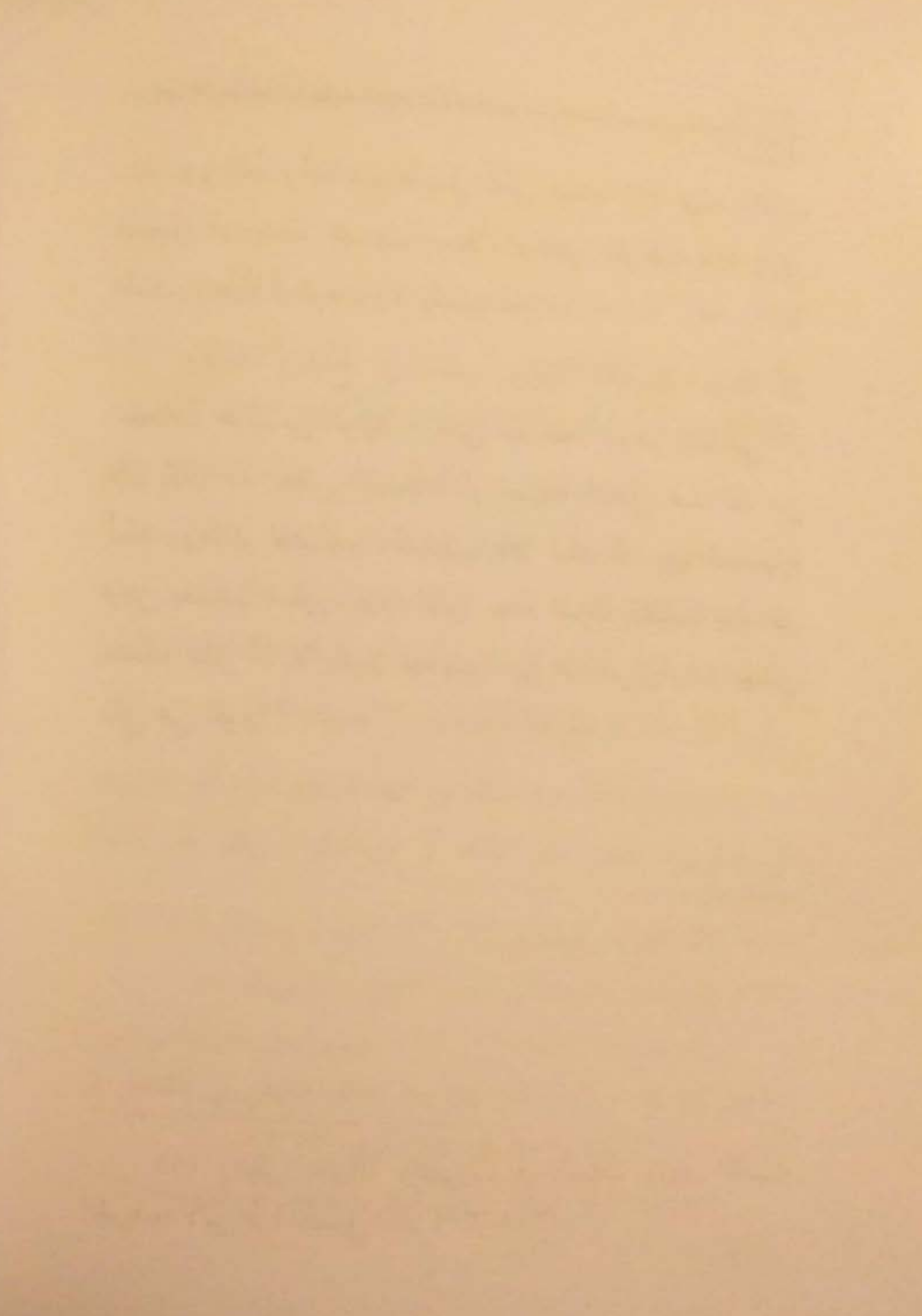
ومن شاء المزيد؛ فلينظر: «جزء محمد بن عاصم عن شيوخه» (١٢ - بتحقيقي).

متابعتهم له، وأخذهم العمل على سنته كان بهذه المثابة، فحقيق أن يتخذ فهمهم سبيلاً، وتجعل أقوالهم قِبلة يولي المسلم وجهه شطرها، ولا يلتفت لغيرها.

وذلك واضح في سبب ورود الحديث حيث أن الخطاب لخالد بن الوليد -رضي الله عنه-، وهو صحابي[1]، فإذا كان مُدّ بعض الصحابة أو نصيفه أفضل عند الله من أُحُد، وذلك لفضلهم وسبقهم؛ فلا شك أن بين الصحابة ومن بعدهم مفاوز، فإذا كانوا بهذه المنزلة فكيف يجيز ذو مسكة عقل أن لا يكون فهمهم لدين الله طريق رشد يهدي للتي هي أقوم؟!

---

(١) وانظر: «البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف» لابن حمزة الحسيني (٣/ ٣٠٤-٣٠٥).



عودًا على بدء

وبالجملة؛ فإن سنة الخلفاء الراشدين هي فهم الصحابة -رضي الله عنهم- للدين؛ لأنهم كانوا على ما كان عليه نبيهم ﷺ فهمًا وتطبيقًا، وبذلك يكون هذا الحديث شاهدًا قويًا يرفع من درجة قوله ﷺ في وصف الطائفة الناجية، والفرقة المنصورة: «مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابِي».

فإن قيل: هذا تعسف في حمل الأحاديث على بعضها.

قلت: من تأمل الحديثين وجدهما يتحدثان عن قضية واحدة، وأن مخرجهما سواء، وهو: طريق النجاة، وطوق الحياة عندما تصير الأمة طرائق قددًا؛ فالفهم الحق حينئذ هو: ما كان عليه رسول الله وأصحابه -رضوان الله عليهما-، وهاك البيان:

١- ألم تر أن حديث العرباض بن سارية -رضي الله عنه- يصرح أن:

«مَنْ يَعِشْ مِنكُم فَسَيَرىَ اختلافًا كثيرًا، وإيَّاكُمْ ومحدثاتِ الأمورِ؛ فإنَّها ضَلالَةٌ»، فنبئني بعلم أخا الإسلام: أليس الاختلاف الكثير الوارد في حديث العرباض بن سارية

هو تعدد الفرق الكبير حتى تبلغ بضعًا وسبعين فرقة كلها على سبيل ضلالة، وطريق بدعة، إلا واحدة على البيضاء النقية التي لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يتنكبها إلا ضال، وتلكم المحجة واضحة المعالم والحجة، وهي:

٢- قوله ﷺ: «ما أنا عليه اليَوْمَ وأصْحَابي»، الذي يعني قوله الآخر: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّة الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ»؛ لأن ما كان عليه رسول الله ﷺ هو سنته المطهرة، وما كان عليه أصحابه هو سنته التي هي سنة الخلفاء الراشدين المهديين، والعلماء العاملين الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

٣- ولست بدعًا في هذا التوجيه والاستدلال، فقد سبقني أئمة أشاروا إلى ذلك، لكنها ومضة استوعبتها، وشرحتها ودعمتها بالأدلة لتستبين سبيل المؤمنين.

فها هو الحافظ ابن حبان -رحمه الله- يخرج حديث العرباض بن سارية -رضي الله عنه- في «صحيحه» (١/ ١٠٤) تحت عنوان: ذكر وصف الفرقة الناجية من بين الفرق التي تفترق عليها أمة المصطفى ﷺ.

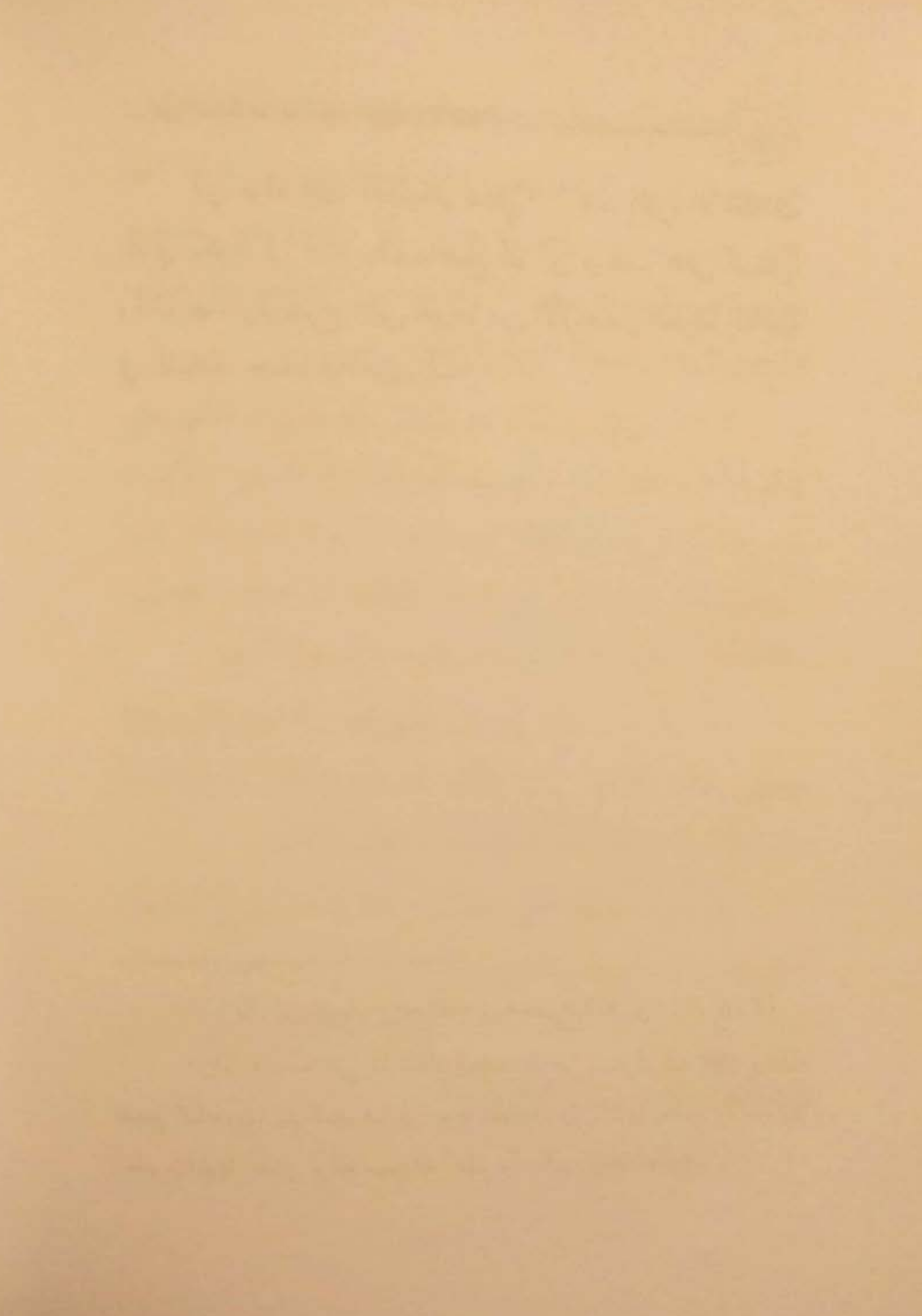
ثم يقول بعده:

«في قوله ﷺ: «فعليكم بسنتي»[(١)] عند ذكره الاختلاف الذي يكون في أمته بيان واضح أن من واظب على السنن، وقال بها، ولم يعرج على غيرها من الآراء من الفرقة الناجية في القيامة، جعلنا الله منهم بمنه».

---

(١) قال ابن تيمية -رحمه الله- في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٥٨):

«وإلا فالسنة هي ما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون، ثم تابعوهم إلى يوم القيامة، وإن كان بعض الأئمة بها أعلم وعليها أصبر. والله سبحانه أعلم وأحكم، والله أعلم».



أقوال أهل العلم في الحديث

لقد صرح جمهرة من أهل العلم بإثبات هذا اللفظ النبوي تصحيحًا أو تحسينًا أو احتجاجًا في مصنفاتهم منهم:

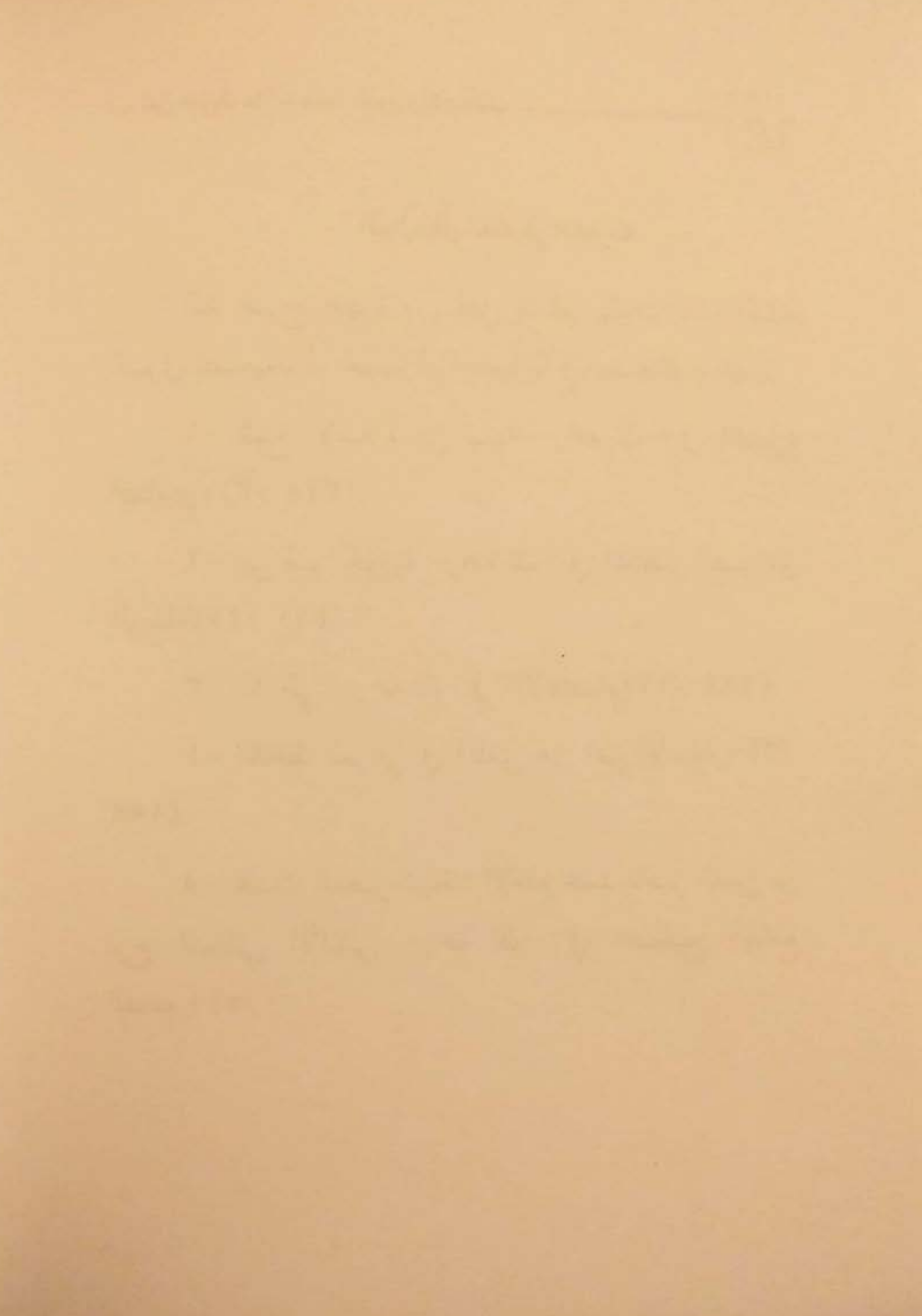
١- شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٥).

٢- ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في «مختصر الصواعق المرسلة) (٢/ ٤١٠).

٣- الشاطبي -رحمه الله- في «الاعتصام» (١/ ١٨٩).

٤- الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٣/ ١٩٩).

٥- محدث العصر شيخنا الإمام محمد ناصر الدين بن نوح النجاتي الألباني -رحمه الله- في «صحيح الجامع الصغير» (٥/ ٨٠).



خاتمة

وبهذا تتمخض هذه الأحاديث عن معنى رائق، ومنهج سني سامق، تنخلع دونه أعناق أهل البدع، فيكون مذهب السلف أسلم، وفهمهم أعلم وأحكم، وتتهاوى مقالة الضلالة التي شحن بها الخلف كتبهم وتواليفهم حيث زعموا: أن منهج السلف أسلم، ولكن منهج الخلف أعلم وأحكم.

ودونك تفنيد هذه المقالة التي هي في غاية في الضلالة؛ حيث تريد أن تنقض من وجوه[١]:

١- لقد فرق الخلف بين السلامة والعلم والحكمة، وهل العلم والحكمة إلا رأس السلامة التي تسير في ركاب العلم وتجر أذيالها وراء الحكمة؟!.

فكيف تجيز العقول التفريق بين السبب ونتيجته إن هذا لشيء محال؟!.

كيف يكون الخالفون أعلم بالله ورسوله ﷺ من خير

(١) وقد استوعبت ذلك في كتابي: «أين الله: دفاع عن حديث الجارية رواية ودراية» (ص ٨٤-٨٨)، وذكرت هناك أقوال كثير من أهل العلم، فأغنى عن الإعادة.

الناس، وهل الخيرية إلا في العلم والحكمة؟ كما سبق بيانه.

٣- أي علم وحكمة في مذهب تبرَّأ منه رؤوسه، وأعلن أقطابه خطأه وزيفه، وأقروا على أنفسهم بالحيرة في أمرهم، والندم على ما أقدموا عليه وقدموه في الله ورسوله وسلف هذه الأمة.

٤- هذه المقالة جهل مركب حيث جهل الخلف مذهب السلف، وجهلوا أنهم يجهلون ذلك، فظنوا أنهم على شيء، وليس كذلك.

قال العلامة السفاريني -رحمه الله- في «لوامع الأنوار البهية» (١/ ٢٥):

«فمن المحال أن يكون الخالفون أعلم من السالفين؛ كما يقول بعض من لا تحقيق لديه ممن لا يقدر السلف ولا عرف الله -تعالى- ورسوله ولا المؤمنين به حق المعرفة المأمور بها من أن طريقه السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

وهؤلاء إنما أتوا من حيث ظنوا: أن طريق السلف هي: مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث، من غير فقه ذلك بمنزلة الأميين.

وأن طريق الخلف هي: استخراج معاني النصوص

المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات.

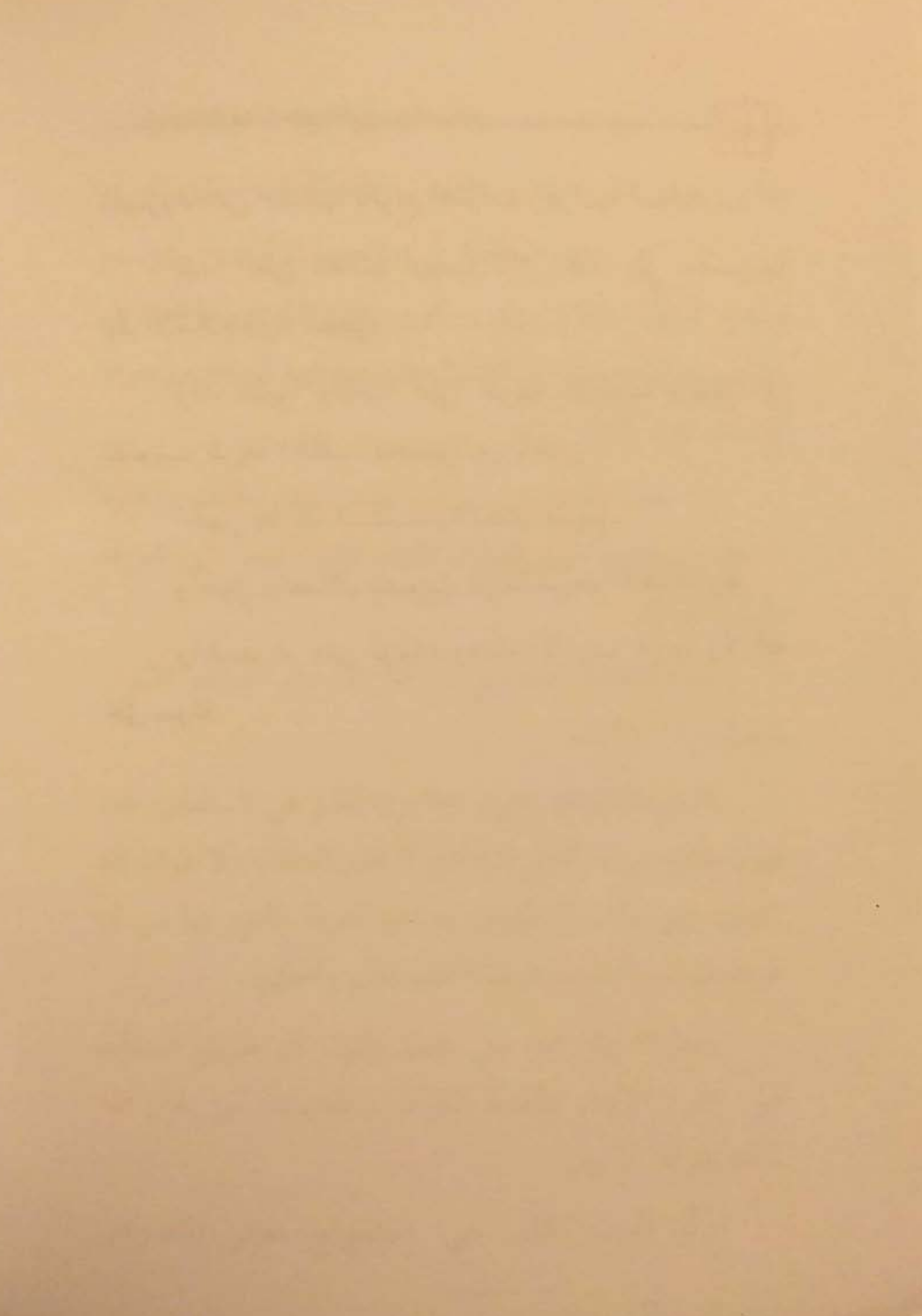
فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهور.

وقد كذبوا وأفكوا على طريقة السلف، وضلوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين باطلين:

الجهل بطريقة السلف، والكذب عليهم.

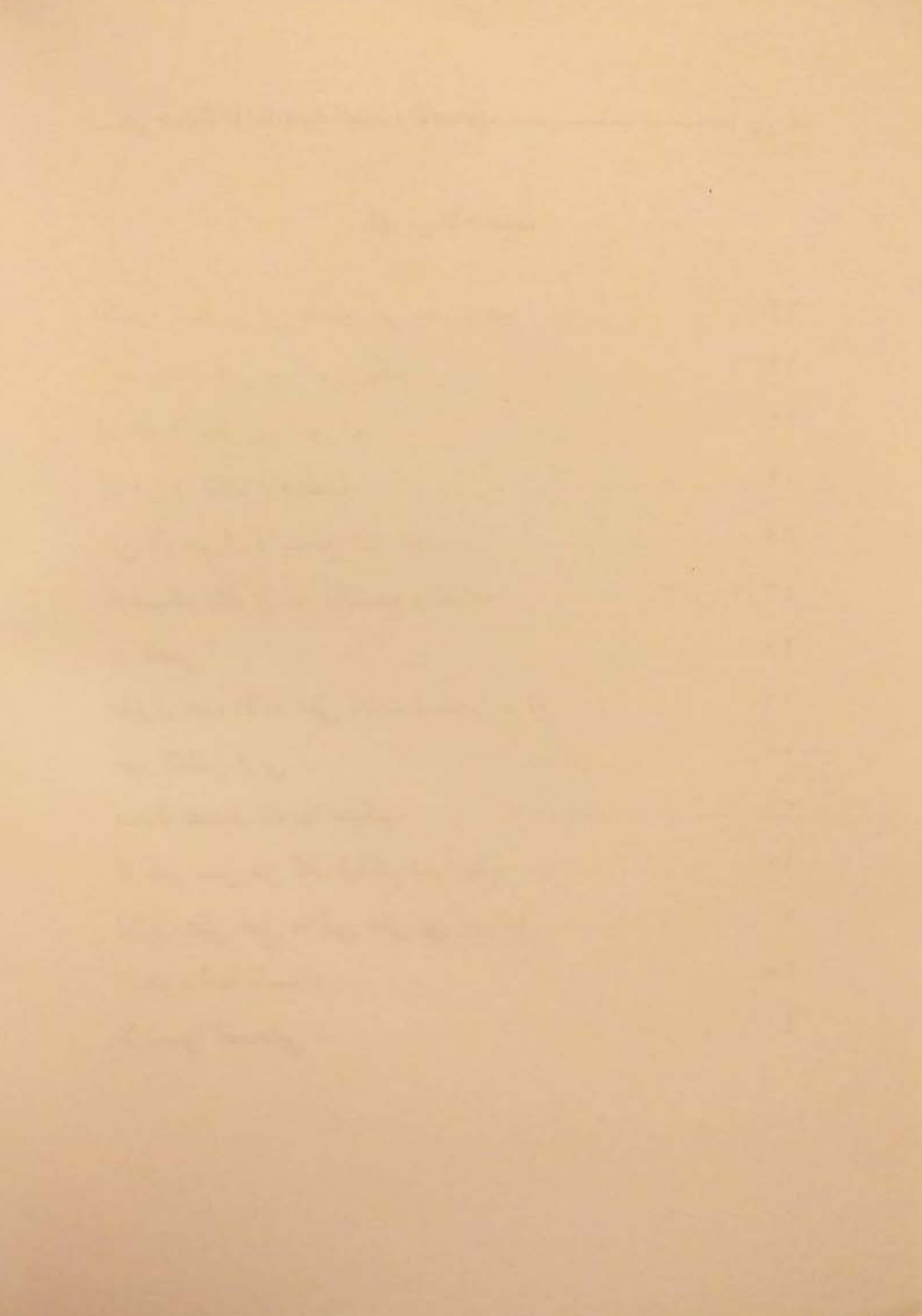
والجهل والضلال بتصويب طريقة غيرهم» أ.هـ بحروفه.

والحمد لله على توفيقه وهداه، لا رب غيره، ولا إله بحق سواه.



فهرس الآيات

فهرس الأحاديث



فهرس الآثار

عبد الله بن مسعود

علي بن أبي طالب

عمر بن الخطاب

فهرس الموضوعات

دعوتنا

١- الرجوع إلى القرآن، والسنة النبوية الصحيحة، وفهمهما على النهج الذي كان عليه السلف الصالح -رضوان الله عليهم-، عملاً بقول ربنا -جلَّ شأنه-: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، وقوله -سبحانه-: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾.

٢- تصفية ما علق بحياة المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره، وتحذيرهم من البدع المنكرة، والأفكار الدخيلة الباطلة، وتنقية السنة من الروايات الضعيفة والموضوعة؛ الَّتي شوَّهت صفاء الإسلام، وحالَتْ دون تقدُّم المسلمين، أداء لأمانة العلم، وكما قال الرسول ﷺ: "يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُوله: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"، وتطبيقًا لأمر الله -عز وجل-: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

٣- تربية المسلمين على دينهم الْحَقّ، ودعوتهم إلى العمل بأحكامه، والتحلي بفضائله وآدابه، الَّتي تكفُل لَهُم رضوان الله، وتُحقق لَهُم السعادة والْمَجد؛ تحقيقًا لوصف القرآن للفئة المستثناة من الخسران: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، ولأمره -سبحانه-: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

٤- إحياء المنهج العلمي الإسلامي الصحيح في ضوء الكتاب والسنة، وعلى نهج سلف الأمة، وإزالة الجمود المذهبي، والتعصب الحزبي، الذي سيطر على عقول كثير من المسلمين، وأبعدهم عن صفاء الأخوة الإسلامية النقية، تنفيذًا لأمر الله -عز وجل-: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ ولقوله ﷺ: "... كونوا عباد الله إخوانًا".

٥- تقديم حلول إسلامية (واقعية) للمشكلات العصرية الراهنة.

٦- السعي نحو استئناف حياة إسلامية راشدة على منهج النبوة، وإنشاء مُجتمع رباني، وتطبيق حُكم الله في الأرض؛ انطلاقًا من منهج التصفية والتربية المبني على قوله -تعالى-: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، واضعين نُصب أعيننا قول ربنا -سبحانه- لنبيه: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، وتحقيقًا للقاعدة الشرعية: "مَنْ تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه".

هذه دعوتنا، ونحن ندعو المسلمين -جميعًا- إلى مؤازرتنا في حَمل الأمانة الَّتي تنهض بهم؛ وتنشر في الخافقين راية الإسلام الخالدة؛ بصدق الأخوة، وصفاء المودة.

واثقين بنصر الله، وتمكينه لعباده الصالحين، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.